

سوسيولوجيا الدين

مدخل:

يدخل الدين كظاهرة اجتماعية في علاقة تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع، هذه الحقيقة تمثل حجر الزاوية في علم الاجتماع الديني، فالدين كظاهرة ينظر إليه -سوسيولوجيا- على أنه في تفاعل مع الأنظمة والقوى الاجتماعية في المجتمع، والتأكيد على الدين كظاهرة اجتماعية يقوم على مجموعة من الاعتبارات أهمها: أن الدراسة السوسيولوجية للدين تتعد أولاً عن الأحكام المعيارية، ثم ثانياً أن المجتمع الديني مجال امبريقي واقعي.

1- أهمية علم الاجتماع الديني وأهدافه:

إن هدف علم اجتماع هو فهم ديناميات حياة الجماعة من جهة، وفهم تأثير الجماعات على السلوك الفردي والجماعي من جهة أخرى. وفي كلا الاهتمامين بديناميات الجماعة وتأثيرها، نجد الدين محوراً للدراسة والتحليل السوسيولوجي، فالأديان تنظم أتباعها في جماعات تعرف بأسماء مثل: الفرق الدينية والحركات الدينية والخلايا الدينية. وهنا تأتي أهمية علم الاجتماع الديني، لأنه يهتم بدراسة بناء ووضع هذه الجماعات لمعرفة كيف تخضع هذه الجماعات الدينية للقوانين الاجتماعية المنظمة لحياة الجماعة عامة، ويهتم كذلك بتتبع تأثير هذه الجماعات الدينية، ليس فقط على أعضائها، بل أيضاً على الأعضاء الآخرين في المجتمع والمجتمعات الأخرى، وكذا دراسة درجة التأثير وطرقه وكيفية قياسه.

2- موضوع علم الاجتماع الديني:

يعد علم الاجتماع الديني فرعاً أساسياً من فروع علم الاجتماع العام، ويهتم هذا التخصص بشكل دقيق، بدراسة مواضيع أساسية؛ مثل: المعتقدات والطقوس والممارسات والاحتفالات الدينية التي ترتبط بالجماعات أو الحركات أو المجتمعات المتدينة عامة، نظراً لأن الدين جزء من المجتمع أو هو بمثابة مؤسسة مجتمعية كباقي المؤسسات الأخرى التي لها دور هام داخل النسق الاجتماعي الوظيفي، فالدين له تأثير كبير في المجتمع كما للمجتمع تأثيره الخاص في الدين، لذلك يعمل علم الاجتماع الديني على مقارنة تلك الموضوعات.

3- رواد علم الاجتماع الديني ومؤسسيه الكبار:

ارتبطت نشأة علم الاجتماع الديني بأفكار ثلاثة من كبار المنظرين الذين أسهموا في وضع الأسس لعلم الاجتماع عامة، وهم كارل ماركس وإيميل دوركايم وماكس فيبر، الذين تنبؤوا بأهمية الدين وآثاره في المجتمعات الحديثة. وكان كل واحد منهم يؤكد على أن للدين دور كبير وأثر عظيم في الحياة البشرية:

1- كارل ماركس:

لم يكتب ماركس عن الدين بشكل مباشر، وإنما كانت دراسته وتحليله للدين في إطار دراسته المادية التاريخية المرتبطة بتطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، حيث تأثر بكتابات السابقين عليه، خاصة الفيلسوف "فيورباخ لودفينج" في كتابه الشهير: "جوهر المسيحية"، وخصوصاً مفهوم "الاستلاب" أو "الاغتراب" الذي أخذه عنه، للدلالة على أن البشر عملوا على خلق آلهة وقوى إلهية متميزة عن البشر، ذلك أن القيم والأفكار الإنسانية تعزى في هذه الحالة إلى كائنات غريبة ومستقلة، يقول: **"الدين أنين ذلك الكائن المضطهد، وقلب العالم العديم الرحمة، إنه أفيون الشعوب"**. لذلك لم يرفض ماركس الدين، بل رفض الاغتراب الذي يولده لدى المضطهدين، خصوصاً أنه يؤدي إلى شرعنة الظلم والتفاوت الطبقي واللامساواة في هذا العالم. فالدين كما يرى ماركس هو أحد البنى الفوقية؛ أي أنه عنصر إيديولوجي قوي يعمل على تبرير جوانب من التفاوت الطبقي واللامساواة في مجال الثروة والسلطة.

2- إيميل دوركايم:

أمضى إميل دوركايم جانباً كبيراً من جهده البحثي في دراسة الدين مع التركيز بصورة خاصة على الاعتقاد الديني في المجتمعات التقليدية. ويمكن اعتبار مؤلفه: الأشكال الأولية للحياة الدينية" أحد أبرز الأعمال المؤثرة في علم الاجتماع الديني، وقد ركز على دراسة "الطوتم" كشكل من الأشكال الأولية للدين، والطوتم هو حيوان أو نبات يجسد قيمة رمزية للجماعة ويحظى بالإجلال والاحترام، ويدخل في جانب المقدس، لأن الأنشطة والطقوس والرموز الدينية تكون بمعزل عن الحياة اليومية الروتينية المدنسة. فتقديس الطوتم يرجع إلى كونه يمثل رمزاً للجماعة نفسها، فهو يجسد القيم المحورية في حياة الجماعة أو المجتمع، وبالتالي فتقديس الطوتم يعكس تقديس القيم الاجتماعية السائدة بالمجتمع. إن طقوس العبادة حسب دوركايم لا تكمن في أهمية الطقوس لذاتها، بل تكمن أهميتها في كونها مصدر للاجتماع واللحمة والإحساس بالتضامن الاجتماعي الذي تعمل هذه الاحتفالات الدينية الجامعة على ترسيخه.

3- ماكس فيبر:

عمل ماكس فيبر على استقصاء الأديان القائمة في العالم في مجهود ثقافي موسوعي غير مسبوق، ويعتبر مؤلف فيبر: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" أحد أهم الإنتاجات في مجال علم الاجتماع الديني. وتختلف أعمال فيبر لأنه ركز على دراسة الترابط بين الدين والتغير الاجتماعي، فالدين حسب فيبر لا يمثل بالضرورة قوة محافظة، بل إن بعض الحركات والتوجهات الدينية أحدثت تحولات اجتماعية مثيرة في المجتمعات الغربية. لقد رأى فيبر في بعض التيارات داخل المسيحية دينا خلاصيا يتضمن الاعتقاد بأن بوسع البشر أن يحققوا الخلاص وينقذوا أنفسهم بانتهاج بعض المبادئ الدينية والأخلاقية. والديانة الخلاصية، كما يرى، تنطوي على جانب تثويري يدعو إلى التمرد على الأوضاع الراهنة ويطلب بتغييرها.

4- مناهج علم الاجتماع الديني:

تتطلب الدراسة العلمية للدين، وجمع المادة العلمية الواقعية عن الموضوعات المتعلقة بالجوانب الدينية لاستخدام عدد من المناهج، يتداخل فيها ما هو كمي بما هو نوعي، لا يسعنا أن نقدمها كلها، لذلك سنقتصر على بعضها:

- المنهج التاريخي:

منهج يبحث العلاقة بين الوقائع الاجتماعية وسمات التدين بهدف تفسير هذه العلاقة، وقد استخدمه بارسونز وبيلا في دراسة تطور الدين.

- المنهج المقارنة الثقافية:

وقد استخدمه فيبر في محاولة اختبار نظريته عن العلاقة بين الاخلاق البروتستانتية وظهور الرأسمالية عن طريق دراسة الدين والاقتصاد في كل من الهند والصين. واستخدمه "تالمون" في دراسته للعديد من الثقافات. فهو منهج مقارنة.

- المنهج التأويلي:

من أشهر ما استخدمه في دراسته للدين هو "كليفورد غيرتز"، وهو منهج يحاول فهم الظاهرة الدينية للكشف عن معانيها الباطنة الممكنة، من خلال سلوكيات الأفراد وتجربتهم

الدينية الخاصة، وهو منهج يعتمد على الكيف لا الكم، مع بعض الأدوات العلمية كالمقابلات.

- المنهج الوضعي:

من أشهر من استخدمه هو " وإيميل دوركايم"، وهو منهج يتعامل مع الظاهرة الدينية كواقعة امبريقية، أو كتجربة علمية قابلة للقياس من خلال أدوات: كالملاحظة والاحصاء والقياس.